

المقارنة بين امرئ القيس وأبى نواس فى تنظيم الشعر

إعداد: محمد نادر الماح سستير

Abstract

This essay will discuss the comparison between Umru'ul Qais and Abu Nuwwas in composing their Arabic poems. These two leaders in Arabic poetry had a significant role and influence in determining the Arabic literature especially in the field of poetry. The far different distance of the era of these two leaders made a dynamic stage in performing poetry in Arabic. The main argument of this paper focuses on the topics and methods they used in composing a poem. The first part of this essay deals with the biography of Umru'ulQais and Abu Nuwwas and the milieu that influenced their characters in poetry. The second part addresses the different in the styles and rhythms in saying poetry. As a reformer, Abu Nuwwas came overhauling the old style of poetries and make them free from the rigid rhymes. The last part of the essay speaks about the main topics of the poetry of both Umru'ulQais and Abu Nuwwas.

Key Word: Umru'ul Qais, Abu Nuwwas, al-Syi'r

أ - المقدمة

قد نشأ شعر العرب عبر التاريخ فى ألوانه المختلفة، و أخذ مكانه وفقاً لتطور الأزمنة واختلاف الأوقات. وكانت أول فترة للشعر العربى الذى كتبه التاريخ هو الشعر فى العصر الجاهلى، ولا يعرف أحد متى بدأ هذا الفن الرائع فى حياة العرب. والذى لوحظ عبر التاريخ أن المعلقات هي احدى الطرق التى يستطيع فيها الناس فى معرفة بداية الشعر العربى وبأنها مسجلة ومكتوبة لدى العرب. ومن أشهر شعراء الجاهلية هو امرأ القيس، هو أحد شعراء كندة ذو بلاغة فاصحة ولغة عميقة نراها فى تركيب أشعاره واختياره لكلماتها.

ولما انتشر الإسلام فى الجزيرة العربية وجاء القرآن بفصاحته اللغوية العليا أخذ العرييون يتعجبون و يتعجزون فى ايتاء بمثل ما جاء القرآن به. ولأن بعض آيات القرآن تتحدث عن اكرام الشعراء والترغيب عن اتيان الشعر فانحطت عدد الشعراء. فى هذه الفترة أى فى عصر صدر الإسلام نلاحظ أن سقوط الشعراء وقتلهم متعلقا بمجيئة القرآن. وإن كان هناك الشعراء فأشعارهم لا تقصى من مدح الإسلام والنبي صلى الله عليه وسلم، فموضوعات الشعر فى هذا العصر انتقلت من التكلم عن الحب و الأطلال و الغزوات و الغزل إلى التحدث عن الإسلام.

بعد فترة من انتشار الإسلام و اتساع آثاره إلى بلاد أخرى جديدة، تطور الشعر العربي من حيث التراكيب والموضوعات والمعاني حسب العادات والميول التي اعتادها السكان المحليون. نرى هذه الاختلافات مثلاً في الشعر في العصر العباسي حيث أن تراكيب الشعر و موضوعاته اختلفت اختلافاً كثيراً. ومن أشهر الشعراء الذين جئوا في لون مختلف في الشعر هو أبو نواس. هو معروف بخمرياته ومداحه نحو الخليفة.

إن اختراع امرئ القيس نموذج الوقوف على الأطلال، أفقده المقلدون خاصته الفنية وتحول إلى عرف وقانون لا خروج عليهما، مما دفع بأبي نواس إلى السخرية من هؤلاء الواقفين والباكين، لأنه أدرك "أن الزمن تيار يجر ويمحو، لكنه قرن هذا الإدراك بمعرفة ثانية هي أن الزمن أيضاً يمنح الأشياء حضورها وقوتها، ويرينا عمق حياتنا الماضية، وأفق حياتنا الآتية، وكثافة حياتنا الحاضرة". فأكسبته هذه المعرفة رؤيا كشفت أمامه رغبة النفس في تجاوز حاضرها، وارتداد المستقبل.¹

وكان أبو نواس من الشعراء الشعوبيين، ولكن شعوبته كانت تنحصر في ازدرائه العرب، وفي ثورته على الأدب القديم. وهو شاعر سهل في خمرياته ومجونياته وزهدياته، ولكنه كان يعمد إلى الغريب في غير ذلك ولا سيما في طردياته. وشعره جديد المعاني والألفاظ، فيه نكتة حلوة وهو مرآة لنفسه وعصره، فنرى فيه عبثه ومجونته وتهمته وكفره وازدرائه للدين. ونرى كذلك ثقته بالله وتوبته وزهده في الخمر والمجنون. وشعره مرآة لما في عصره من استهتار بالمعاصي واستهزاء بالدين، ويتجلى فيه نزوعه عن أساليب العرب ومعانيهم وأوصافهم إلى أشياء جديدة ويعرض علينا ثقافات عصره.²

في هذه الورقة التي عنوانها "المقارنة بين امرأ القيس وأبي نواس في تنظيم الشعر"، سوف تجرى التحليل حول المقارنة الشعر بين امرأ القيس و أبو نواس من جهة الأوزان والقافية و كذلك من جهة الموضوعات.

¹ ابن رشيق، العمدة (مصر: مطبع السعادة، 1955)، الطبعة الثانية، ص. 13

² ديوان أبو نواس، دار الصادر، (بيروت: دون سنة)، ص. 5.

ب - ترجمة حياة امرؤ القيس وأبو نواس

مما لا شك فيه أن ترجمة الحياة لأي شخص شيء مهم جداً في تعريف خلفيات حياته وما هو قد أثره في حياته. وربما معرفة رواية أحد يجعلنا في تفسير سلوكه بما صنع في حياته. وكذلك في ترجمة حياة امرؤ القيس وأبو نواس نرجو منها الاستفادة في تحليل خلفياتهما في تنظيم شعرهما. كان حياة امرؤ القيس وأبو نواس فيه اختلافات كثيرة حيث أنهما عاشا في مختلف الدور والعصر والحال. هؤلاء القوائم هي التي أمر أساسي نجد في تراكيب وموضوعات شعرهما، فحمل امرؤ القيس بالشعر نسبة إلى ما هو واقع في عصره، وأكثرها تتحدث عن الأطلال والحب والغزل. ولما كانت الدور والعصور مدت وتغيرت أحوال الناس بتغير الأزمنة فحاء الأجيال الآخرون في الشعر بنمط جديد من الإرتجال والتدرج على يد المجددين. فمن هؤلاء المجددين الذين جائوا في تجديد الشعر العربي هو أبو نواس.

إن البحث التالي يريد أن يراجع خطوات حياة امرؤ القيس وأبو نواس كي نستطيع أن نكتشف ما هي العناصر التي تجعل بين هاذين الشاعرين مختلفين في تنظيم الشعر.

1 - امرؤ القيس

هو امرؤ القيس بن حجر بن الحارث بن عمرو بن حجر آكل المرار بن معاوية بن ثور وهو كندة. شاعر جاهلي يعد أشهر شعراء العرب على الإطلاق. قال الشعر وهو غلام، وجعل يشب ويلهو ويعاشر صعاليك العرب، فبلغ ذلكأباه، فنهاه عن سيرته فلم ينته، فأبعده إلى حضرموت موطن أبيه وعشيرته، وهو في نحو العشرين من عمره. أقام زهاء خمس سنين، ثم جعل يتنقل مع أصحابه في أحياء العرب، يشربويطرب ويغزو ويلهو، إلى أن ثار بنو أسد على أبيه فقتلوه، فبلغه ذلك وهو جالس للشرايفقال: رحم الله أبي! ضيعني صغيراً وحملني دمه كبيراً، لا صحو اليوم ولا سكر غداً، اليوم خمر وغداً أمر. وذهب إلى المنذر ملك العراق، وطاف قبائل العرب حتى انتهى إلىالسموأل، فأجاره ومكث عنده مدة، ثم قصد الحارث بن شمر الغساني في الشام، فسيرهاالحارث إلى القسطنطينية للقاء قيصر الروم يوستينياس، ولما كان بأنقرة ظهرت في جسمهقروح فأقام فيها إلى أن مات.³

³ عبد الرحمان المصطاوى، ديوان امرؤ القيس (بيروت: دار المعرفة، 2004)، الطبعة الثانية، ص. 14

وليس يعرف تاريخ ولادة امرئ القيس ولا تاريخ وفاته، ويصعب الوصول إلى تحديد تواريخ دقيقة مما بلغنا من مصادر. وتذهب بعض الدراسات الحديثة إلى أن امرأ القيس توفي بين عام 530م. وعام 540م. وأخرى إلى أن وفاته كانت حوالي عام 550م. وغيرها تحدّد عام 565م. إلا أن هناك بعض الأحداث الثابتة تاريخياً ويمكن أن تساعد على تحديد الفترة التي عاش فيها.

2 - أبو نواس

هو الحسن بن هانئ بن عبد الأول بن صباح الحكمي بالولا، واشتهر بلقب أبو نواس.

أ) مولده

ولد في الأحواز من بلاد عربستان جنوب غربي إيران سنة (145هـ / 762م) لاب دمشقى / سوري وإم فارسىه الأصل والمرجح أن والده كان من جند مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية في دمشق. وأباه عربي النسب من عشيرة طيء من بني سعد كما ذكر في كتب التاريخ ، وكان جده مولى للجراح بن عبد الله الحكمي أمير خراسان ، فنسب إليه، وذكر ابن عساکر إن أباه كان من أهل دمشق.

ب) حياته

توفي والده فانتقلت به أمه من الأحواز إلى البصرة في العراق ، وهو في السادسة من عمره ، وعندما أيفع وجهته إلى العمل في حانوت عطار. ثم انتقل من البصرة إلى الكوفة ، ولم تذكر لنا كتب التاريخ سبب ذلك ، غير أنه التقى والبة بن الحباب الأسدي الكوفي فرافقه إليها. وصحب جماعةً من الشعراء الماچنين كمطيع بن إياس و حماد عجرد. ثم انتقل إلى بادية بني أسد فأقام فيهم سنةً كاملةً آخذاً اللغة من منابعها الأصيلة. ثم عاد إلى البصرة وتلقى العلم على يد علمائها أدباً وشعراً.

ولم يقتصر طلبه العلم على الشعر والأدب بل كان يدرس الفقه والحديث والتفسير حتى قال فيه ابن المعتز في كتابه 'طبقات الشعراء' : "كان أبو نواسٍ عالماً فقيهاً عارفاً بالأحكام والفتيا ، بصيراً بالاختلاف ، صاحب حفظٍ ونظرٍ ومعرفةٍ بطرق الحديث، يعرف محكم القرآن ومتشابهه ، وناسخه ومنسوخه."

وفي البصرة شغف أبو نواسٍ بجاريةٍ تدعى "جنان" وغناها بشعرٍ كثيرٍ يعبر عن عمق شعوره نحوها. وقد قصد أبو نواسٍ بغداد وامتدح هارون الرشيد ونال مكانةً مرموقةً لديه ، ولكنه . أي هارون الرشيد . كان كثيراً ما يجبسه عقاباً له على ما يورد في شعره من المباديل والمجون. وقد أطال الرشيد حبسه حتى عفا عنه بشفاعه من البرامكة الذين كان أبو نواسٍ قد اتصل بهم ومدحهم. ولعل صلته الوثيقة بهم هي التي دفعته إلى الفرار حين نكبهم الرشيد فيما عرف فيما بعد بنكبة البرامكة.

ذهب أبو نواسٍ إلى دمشق ثم إلى مصر متجهاً إلى الفسطاط ، عاصمتها يومذاك ، واتصل بوالي الخراج فيها الخصيب بن عبد الحميد فأحسن وفادته وغمره بالعطاء فمدحه بقصائد مشهورة. توفي هارون الرشيد وخلفه ابنه الأمين ، فعاد أبو نواسٍ إلى بغداد متصلاً به ، فاتخذه الأمين نديماً له يمدحه ويُسمعه من طرائف شعره. غير أن سيرة أبي نواسٍ ومجاهرته بمبازله جعلتا منادمته الأمين تشيع بين الناس. وفي نطاق الصراع بين ابني الرشيد ، الأمين والمأمون ، كان خصوم الأمين يعيرون عليه اتخاذ شاعرٍ خليعٍ نديماً له، ويخطبون بذلك على المنابر ، فيضطر الأمين إلى حبس شاعره. وكثيراً ما كان يشفع الفضل بن الربيع له لدى الخليفة فيخرجه من سجنه. وعندما توفي الأمين رثاه أبو نواسٍ بقصائد تنم عن صدق عاطفته نحوه.

(ج) وفاته

لم يلبث أبو نواسٍ أن توفي في عام (199هـ / 813م) قبل أن يدخل المأمون بغداد، وقد اختلف في مكان وفاته أهي في السجن أم في دار إسماعيل بن نوبخت. وقد اختلف كذلك في سبب وفاته وقيل إن إسماعيل هذا قد سمه تخلصاً من سلاطة لسانه. وذكر الخطيب البغدادي، صاحب كتاب تاريخ بغداد، في الجزء السابع، صفحة 448 ، إن الشاعر أبو نواسٍ دفن في مقبرة الشوينزية في الجانب الغربي من بغداد عند تل يسمى تل اليهود وهي مقبرة الشيخ جنيد حالياً.

(د) مما نستفيد من ترجمة حياتهما

وما يفصل بينهما أشياء كثيرة : أفقد خانورمال وعصوروملاييناً غانوبجارجبال . عاش أبو نواس في بغداد، وبينما عاش امرؤ القيس في الجزيرة العربية وأبو نواس هو ابن القرن الثامن، بينما امرؤ القيس

عاشفيالقرن الخامسالميلادي .ومعدلكيناديامرؤالقيستصوير طبيعة العرب والخيول العربية، لأن امرأالقيسعاشفيبيئة كهذه،وهو،منوجهةنظر أبو نواس،لايستطيعأنينادي امرأالقيسحلاقاً لهذاالذييناديه،ونحنعرفأنالقصورتعرضعلالشعراءالكبارأن يعيشوافيكنفها. من روايتهما فنستطيع أن نلاحظ بعد ما يفرق بينهما نسبة إلى ترجمة الحياة السابقة:

1) الاختلافالأول،اختلافموقع،ونحنعرفأن امرأالقيس حين كتب القصيدة متمية إلى طبيعة العرب وميوهم بينما أن أبو نواس حينكتبالقصيدة، كان منتمياًإلخالخمریات والمدائح نحو الخليفة.

2) اختلاف ثان،فبينماكانامرؤالقيسا بنملكفقدملكه،ومنهناأخذيبحثعنملكأبيه، كان أبو نواس توفي والده فعاش مع أمه منذ السادسة من عمره. فالعصر الذي عاش فيه أبو نواس كان معترك الأنساب والأحساب بين كل إنسان وكل إنسان في الدولة الإسلامية. هب فيه الشعوبيون يفاخرون العرب ولا يعترفون لهم بفضا غير فضل النبوة.⁴

3) أماالاختلافالثالث،وهومنبثقعنالاختلافينا لأولوالثاني،فيكمنفينظرأبو نواس،في حينه،إلوظيفةالشاعر . كانالشاعرالعربيقدميركزفيقصيدتهعلالديارالمهجورة، وهو مانعرفهابسالموقوفعلالأطلال،وأصبحتهذااللازمة،فيمابعد،جزءامهمامن القصيدة،حتلومليكنلصاحبها تجربة معالأطلال،وظلالاًمركزلكفترةطويلة،حتى جاءأبونواس وعبرعنرفضهنظمقصيدةتبدأبوصفاًلأطلال- وإنكاننظمها - وسخر منشعراءعصره ونقادهاالذي نمازالوايمجدونهدا،سخرمنهمقائلاً:

عاجالشقيعلى دار يسائله وعجتأسألعنخمارةالبلد

وكانأبو نواس،وهوشاب،ينظمقصائدديدافعفيهاعنالملك العباسية وعنشاربي الخمر،ولم يكنينظرإلالماضيكثيراً،لأنهكانيبحثعنشيء مجتذب لدى الملك.⁵

⁴ عباس محمود العقاد، المجموعات الكاملة لمؤلفات الأستاذ عباس محمود العقاد (دار الكتاب اللبناني: دون سنة) ص. 112

⁵ عادل الأسطة، محمود درويش والمتنبى وأمرؤالقيس أو بتمام، مجلة الشعراء وجريدة الأيام. 2000-2003. ص. 20.

ج - الفرق بين امرأ القيس و أبو نواس في تركيب الشعر.

يحدث لنا التاريخ أن الشعراء الجاهليون هم الذين رائدوا للشعر العربي وهم الذين من أول من نظم الشعر في الأدب العربي على صورتها الموزونة بالعروض والقافية. وكان امرؤ القيس حامل للواء هذا الشعر العربي. وقد وقف أهل التاريخ والأدباء على أن امرأ القيس هو شاعر ذى عبقرية و سمو الفن في الشعر. هذا نرى من أبياته الملائمة بدق العواطف في معرفتها والمتضمن بالمعاني القلبية في حسيها. وهو أجداد العرب في عصره وحتى يومنا الحاضر ما زال مرجعا لمن يريد أن يتعمق بالأدب العربية. ومن الجانب الآخر، جاء أبو نواس بلون جديد مختلف بما استقره الشعراء الذين جئوا من قبله. فموضوعات وتراكيب شعره تخالف مما تجرى على العادة في غالب الشعراء، وحتى يقال له مجدد في الشعر العربي.

1 - امرأ القيس

أ) قافية ابيات شعر امرأ القيس كانت أكثرها على الأغلب تنتهى باللام (الشعر اللامي). فلنتأمل مثلا إلى الأبيات التالية:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل
فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها لما نسجتها من جنوب وشمال
وقوفاً بها صحبي عليّ مطيهم يقولون لا تهلك أسي وتجمل
وإن شفائي عبرة مهراقة فهل عند رسم دارس من معول
كدأبك من أم الحويرث قبلها وجارتها أم الرباب بمأسل

نرى أن في هذه الأبيات منتهية باللام. وكل القافيات في أبيات المعلق التي كان عدده حوالى خمسمائة تنتهى باللام.

ب) أوزانه في الأبيات معظمها على وزن بحر الطويل.

إذا شغلنا إلى تحليل أبيات امرئ القيس، فنجدها أنها منظمة على وزن بحر الطويل (فعول مفاعيلن). والمعنى في ذلك أن كلمات الشعر مطابقة بالوزن الموسيقى أى هو الذى يجعل الكلمات مقيدة على وزن فعول مفاعيل. ويجرى على الغالب أن الأبيات التى تحت بحر الطويل تتكون من هذا النمط:

فعول مفاعيل فعول مفعيلن فعول مفاعيل فعول مفاعيلن

والكلمة التى تقع فى القافية أو فى آخر البيت أحيانا قد يزداد أو يحذف حسب الحاجة فى تنظيم وتركيب الكلمات. فمفاعيلن، إذا حذف آخر حرفها فتكون على وزن مفاعيل أو مفاعل. ⁶ فلنتأمل مثال ذلك فى بيت امرئ القيس بما يلي:

قناب (فعولن) ك من ذكرى (مفاعيلن) حبيب (فعولن) ومنزل (مفاعل) -
بسقط ال (فعولن) لوى بين الد (مفاعيلن) دخول (فعول) فحومل (مفاعل)

2 - أبو نواس

أ) أساليب أبياته لا تقصر من اللامية أو الميمية ولكن ترتكب بشتى القوافى.
الأبيات التالية يعطينا الحجة من أن أبيات شعر أبو نواس لا تتحدد قافيته فى حرف واحد:

إلهي لَسْتُ لِلْفِرْدَوْسِ أَهلاً وَ لَا أَقْوَى عَلَيِ النَّارِ الْجَحِيمِ
فَهَبْ لِي تَوْبَةً وَ اغْفِرْ ذُنُوبِي فَإِنَّكَ غَافِرُ الذَّنْبِ الْعَظِيمِ
وَ عَامِلِي مُعَامِلَةَ الْكَرِيمِ وَ تَبَّتْني عَلَيِ النَّهْجِ الْقَوِيمِ

إِهْنًا مَا أَعَدَّكَ مَلِيكَ كُلِّ مَنْ مَلَكَ
لَبِيكَ قَدْ لَبَيْتُ لَكَ لَبِيكَ لَا شَرِيكَ لَكَ

⁶ الزمخشري، القسطاس فى علم العروض (بيروت: مكتبة المعارف، 1989) المحقق فخر الجين فباوة، الطبعة الثانية..

وَاللَّيْلِ لَمَّا أَنْحَلَّكَ وَالسَّابِحَاتِ فِي الْفَلَكَ
 عَلَى بَحَارِي الْمِنْسَلِكِ مَا خَابَ عَبْدٌ أَمَّلَكَ
 أَنْتَ لَهُ حَيْثُ سَلَكَ لَوْلَاكَ يَا رَبِّ هَلَكَ
 كُلِّ نَبِيٍّ وَمَلَكٍ يَا مُخْطِئًا مَا أَعَقَّلَكَ
 عَجَلٍ وَبَارِزٍ أَجَلَكَ وَاخْتِمِ بِخَيْرِ عَمَلِكَ
 لَبَيْكَ إِنْ الْحَمْدَ لَكَ وَالْعِزَّ لَا شَرِيكَ لَكَ

ذُنُوبِي مِثْلُ أَعْدَادِ الرَّمَالِ فَهَبْ لِي تَوْبَةً يَا ذَا الْجَلَالِ
 وَ عُمْرِي نَاقِصٌ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَ ذَنْبِي زَائِدٌ كَيْفَ احْتِمَالِي
 إِلَهِي عَبْدُكَ الْعَاصِي أَتَاكَ مُقِرًّا بِالذُّنُوبِ وَ قَدْ دَعَاكَ
 إِنْ تَغْفِرْ وَ أَنْتَ لِذَاكَ أَهْلٌ وَ إِنْ تَتَزَدَّ فَمَنْ نَرْجُو سِوَاكَ

(ب) مع أن أبو نواس جاء كمجدد لشعر العرب فكانت أبيات شعره لا تتبع إلى الأوزان التي قررها الشعاعون الأولون. فنادر ما نجد في شعره مطابقا بنظام الوزن والعروض والقافية بما حددتها كتب العروض القديمة.

د - الفرق بين امرأ القيس و أبو نواس في موضوعات الشعر

من المنظور مما لاحظنا في البحث السابق، أن كثيرا مما يفرق امرأ القيس وأبا نواس في تنظيم شعرهما هو البيعة وموقعتهما في مختلف العصور والأحوال. كان امرؤ القيس متوحدا مع ذاته العليا، متصالحا مع نفسه، واثقا بقدرته على الاختراع، فرفض استسلام الإنسان فيه إلى قدره، وأدرك قدرته على خلق المثال الذي اهتم المقلدون باسمه، وأعرضوا عن معناه. فالحياة الجاهلية، وما يتبعها من أساليب معيشية وفكرية متنوعة، لا تعنيه وجدانيا أو عاطفيا، إلا بقدر ما اكتسبه من جينات ساعدته على النمو والتواصل، من دون أن يكرر صور الماضي وأشكاله أو يسجن إنسانه في صدفه لا تجدد فيها.

إن الشعر مع أبي نؤاس ليس نقلا وتصويرا إنه نزوع ومغامرة، الهدف منه رصد حركة الزمن واستجلاء أسراره، فأراد أن يكون شعره تعبيرا صادقا عن حقيقة العصر، وبوحا جماعيا ينقل تجربته الذاتية التي تختزل الأنا الإنسانية الجماعية، وتهدم صنمية الموروث، وتبث العالم من حولها حركة لا تنتهي تهدف إلى الكشف الدائم.

بهذه الرؤيا رفض أبو نؤاس الوقوف على الأطلال، ونعت أصحاب هذه العادة بالأشقياء، والصنميين والأغبياء، واختار لنفسه أمكنة روحية يسمو بها، ويتعتق. إنها أمكنة منزهة عن المحدودية، واللمس، والدونية، والهدم والزوال.⁷

1 امرأ القيس

(أ) وصف الأطلال

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل
فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها لما نسحتها من جنوب وشمال
وقوفاً بها صحبي علي مطيهم يقولون لا تهلك أسي وتحمل
وإن شفائي عبرة مهراقة فهل عند رسم دارس من معول
كدأبك من أم الحويرث قبلها وجارتها أم الرباب بمأسل⁸

في هذه الأبيات نجد فيها أن امرأ القيس تحدث عن أطلال الديار، وهي الحياة في الدنيا الذي يعيش الناس فيه مع كل أحواله المؤثرة. ويبدو فيها أيضا أن امرأ القيس حكى سرد المنازل، وحنين إلى الأحبة الذين فارقهم يبدو لنا فعل الأمر "قفا" خروجاً عن عبارة الرحيل، وعلى الاستسلام للقهر والبعد والتخريب، إنه التصوير الأسمى لمشاعر النفس العظيمة في التعبير

⁷ مخايل نعيمة، المجموعة الكاملة (بيروت: دار العلم للملايين، 1971)، ص. ...

⁸ BassamKFrangieh, *Anthology of Arabic Literature, Culture, and Thought from Pre-Islamic Times to the Present* (... :Yale University Press, 2004), p. 482

عن رفضها لحدثان الدهر. إنه الرفض بالتأكيد على القبول، والنظر والفحص والتأمل، كي تبقى الصورة ثابتة في أذهان الصفوة القادرة على التغيير والانتصار.⁹

(ب) الغزل الصريح، ووصف محاسن المرأة، وهو أطول الأقسام، وعدد أبياتها سبعة وثلاثون بيتاً. نذكر بعضها فيما يلي:

وبيضة خدر لا يرام خباؤها تمتعت من لهو بها غير معجل
تخطيت أهوالاً إليها ومعشراً على جراسا لو يسرون مقتلى
إذا قلت هاتى نولينى تمايلت علي هضيم الكشح ريا المخلخل
مهفهة بيضاء غير مفضة ترائبها مصقولة كالسجنجل
تصد وتبدى عن شتيت وتتقى بناظرة من وحش وجرة مطفل

حكى من هذا القسم من أبيات الشعر امرئ القيس بأنه ذكر أسماء محبوباته التي ذات النظرات السواحر. وأيضاً تحدث فيها عن امرأة مخدرة يكنف خباؤها الحراس من كل جانب. ويبدو في هذا القسم وصف حسي للمرأة يطشف عن ذوق الشاعر المرفه، إذا يذكر ضمور الخضر والبطن وامتلاء الساق وصفاء البشرة وبريق الترائب وسحر المعلقة وغزارة الشعر ولين البنان واكتمال الجمال ووفرة النعم.

(ج) وصف الليل المظلم. هذا الشعر يتكون من أربعة أبيات وهي:

وليل كموج البحر أرخى سدوله على بأنواع الهموم ليبتلى
فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف اعجازاً وناء بكلكل
ألا أيها الليل الطويل ألا انجلى بصبحٍ وما الاصبح منك بأمثل
فيا لك من ليل كأن نجومه بكل مغار الفتل شدت يذبيل

نرى في هذه الأبيات أن امرأ القيس أراد أن يصف الليل بموج البحر الذي يشده في المظلوم. يشكو همهم ويصف ليله الطويل الثقيل. ويتمنى أن يكون الصبح يجيئ مسرعاً نيابة عن

⁹عبد الرحمان المصطاوى. ديوان امرئ القيس. دار المعرفة: بيروت. الطبعة الثانية. 2004. ص. 14

ظلمة و ثقيلة الليل المدهشة وهو في ذلك يتمنى لكى صعوبة الحياة والمشاكل التى وجهها ارتحل
عابرا رجاء بأن يزيل همه.

(د) يفخر باحتماله كل الصديق، وبتجشمه مخاطر الطريق ومقابلة الذنب ومقارنة
بنفسه بالتفرد.

وقربة أقوام جعلت عصامها على كاهل مني ذلول مرحل
وواد كجوف العير قفر قطعته به الذئب يعوي كالحليع المعيل
فقلت له لما عوى: إن شأننا قليل الغنى إن كنت لما تمول
كلانا إذا ما نال شيئاً أفاته ومن يحترث حرثي وحرثك يهزل
(هـ) وصف امرئ القيس للفرس.

وقد أغندي والطير في وكناتها بمنجرد قيد الأوابد هيكل
مكر مفر مقبل مدبر معاً كجلمود صخر حطه السيل من عل
كميت يزل اللبد عن حال متنه كما زلت الصفواء بالمتنزل
على الذبل جياش كأن اهتزاه إذا جاش فيه حميه غلي مرحل

في هذه الأبيات وصف امرؤ القيس الدقيق للفرس، يذكر سرعته وحمرة ونشاطه
وضمور خصره وعوده ونزوه وكول فخذه وذكاء قلبه وقوة صلبه.

(و) الطرد، وصف الشاعر البقر الوحشى

فعن لنا سرب كأن نعاجه عذارى دوار في ملاء مذيل
فأدبرن كالجزع المفصل بينه يجيد معم في العشييرة مخول
فألحقنا بالهاديات ودونه جواحرها في صرة لم تزيل
فعادى عداء بين ثور ونعجة دراكاً ولم ينضخ بماء فيغسل
في هذه الأبيات أراد امرأ القيس أن يصف البقر الوحشى بأنه هو البقر الأبيض المرقت
ببعض السواد ويصف مشيه وطول أذنايه، وقدرة فرسه على ادراكه والإحاطة بالسرب. ويصف
اعداد الطهارة للطعام والعودة من رحلة الصيد.

(ي) وصف الطبيعة، يصف منها البرق
 أصاح ترى برقاً أريك وميضه كلمع اليدين في حيي مكلل
 يضيء سنه أو مصايح راهب أمال السليط بالذبال المفتل
 قعدت له وصحبتى بين ضارج وبين العذيب بعد ما متأملي
 على قطن بالشيم أيمن صوبه وأيسره على الستار فيذبل
 كان هذا القسم بصفة الطبيعة من شعر امرأ القيس تتكون من اثني عشرة أبياتاً.
 ونلاحظ على هذا القسم عامة أن امرأ القيس أراد أن يصف وميض البرق وسرعة انتشاره
 وتفجيره السحب ثم يصف انهمار السيول وجرفها الشجر وذعر الحيوان، ويصف الجبل الذي
 تكنفه مياه السيل وازدهار النبت والسباع الغرقى.

2 - أبو نواس

أدرك أبو نواس قيمة الكشف عن حقيقة الأشياء، وأهمية نقض الموروث المخنط وضرورة
 خلق حضور فكري ثقافي يرفض الصنمية، ويتعالى على جمودية التلقي، ليخرج على العرف
 والعادة بالبرهان العلمي وبتحقيق فعل ما يضمه النطق الذي يعطي الصورة الحقيقية للمعاني
 المضمره والمستتره. فنطق بما أحس وآمن، داعياً إلى التخلي عن كل ما يتنافى مع الفكر ورفض
 التقليد، فرأى في الوقوف على الأطلال عبودية فكرية لزمن يعينه تاريخياً وتأسلاً، ويفصل عنه
 تجربة وحياة، لأنه ينتمي إلى واقعٍ مغاير، له أدواته وظروفه وخصائصه . البحث التالى سوف
 نرى خصائص شعر أبي نواس:

كان أهم ما في شعر أبي نواس "خمرياته" التي حاول أن يضارع بها الوليد يزيد أو عدي
 بن يزيد بطريق غير مباشر اللذين اتخذهما مثلاً له. و قد حذا بنوع خاص حذو معاصره
 حسين بن الضحاك الباهلي الذي لا شك أننا لا نستطيع أن نجد بينه و بين أبي نواس
 فوارق روحية.

-الخمره التقليديه

إنه اتخذ الخمرة - في بادئ الأمر - وسيلة لأغراض أخرى، كما اتخذها الشاعر الجاهلي والإسلامي و الأموي قبله .منها الفخر . فلم يأت بشيء جديد في هذا الصعيد من ناحية المعنى إلا أن في وصفه فيها روعة وجمال كما يقول:

لما تبين أنّي غيرُ ذي بُحْلٍ وليس لي شغلٌ عنها وإبطاءٌ
أتى بها قهوةً كالمسكِ صافيةً كدمعةٍ منحتها الخدَّ مرهأً

-الخمرة الفنية-

بعد المرحلة التقليدية رأى أبو نواس ضرورة التجديد في الشعر، فثار على الأعراف والتقاليد والقيم الأخلاقية السائدة لا تناسب أحوال مجتمعه . وهو في الحقيقة تبنى على صعيد الشعر من الحرية مبدأ يعبر من خلاله عن اتجاهه الفكري، والفني، واتخذ من الخمرة وسيلة يجسد من خلالها إيمانه بضرورة التجديد في الشعر كما في الحياة.

قال طه حسين: إنه كان يُريد أن يتخذ ويتخذ الناس معه، في الشعر مذهبا جديدا . وهو التوفيق بين الشعر وبين الحياة الحاضرة، بحيث يكون الشعر مرآة صافية تتمثل فيها الحياة، ومعنى ذلك العدول عن طريقة القدماء . لأن هذه الطريقة كانت تلائم القدماء وما ألفوا من ضروب العيش . فإذا تغيرت ضروب العيش هذه وجب أن يتغير الشعر الذي يتغنى به، فليس يليق بساكن بغداد، المستمتع بالحضارة ولذاتها، أن يصف الخيام والأطلال، أو يتغنى بالإبل والشاء، وإنما يجب عليه أن يصف القصور والرياض ويتغنى بالخمير والقيان . فإن فَعَلَ غيرُ ذلك فهو كاذب متكلف.¹⁰

فإنه آمن برسالة الشعر في الحياة، وسعى جاهدا إلى ربط الجسور بين الواقع والشعر لتحقيق غاياته وأهدافه وقد ألح في شعره على تجسيد الحياة الحاضرة حيث يقول:

أحبُّ إلىَّ من وخذ المطاي بمومة يُتبه بها الظليمُ
ومن نعت الديار ووصف ربع تلوحُ بها على القِدَمِ الرسومُ
رياض بالشقائق مُوثقات تكتفّ نبتها نورَ عميمُ

¹⁰ حديث الأربعاء: طه، حسين، الطبعة الثانية عشرة، دار المعارف، القاهرة 1976م. ص. 90.

كأنّ بها الأقاحي حين تضحى عليها الشمسُ طالعةً نجومُ
ومجلس فتيةٍ طابوا وطابت مجالسُهُم وطاب بها النعمُ
تدارُ عليهمُ فيها عقارُ مُعتتقَةٌ بها يصبوا الحليمُ
كؤوس كالكوكب دائراتُ مطالعُها على الفلك الأديمُ

-الخمرة الاجتماعية والسياسية-

قال يوسف هاد يور تصويراً بقسم هذه الخمرة لأبي نواس: أن أبو نواس صور من خلال الخمرة أجواء عصره، وجسد من خلالها مظاهر الحضارة في مجتمعه، وما أودعته تلك الحضارة في ذلك المجتمع من بدخ وترفٍ وقيان وغللمان وجوار. ولجأ من خلال الخمر إلى كشف سوءات مجتمعه وتعريته بأسلوبه الخاص وبوسائله التعبيرية الخاصة. ولجأ من خلالها إلى كشف الأقنعة من تلك الوجوه التي كانت تتخذ من الدين والتمسك بالأعراف ستاراً تخفى تحته الرياء والكذب والنفاق، ويرمي من خلال ذلك إلى إعطاء صورة أمينة لبعض الأوساط الإجتماعية في زمنه، إلى جانب أنه كان يعرض أحوال خلفاء بني العباس ورجالهم الذين كانت لهم مجالس أنسهم وطربهم مع القيان والغللمان و شرب الخمر، بينما كانوا يتظاهرون بالتقوى الديني والوقار الإجتماعي. يقول في قصيدة يمدح من خلالها الأمين، متخذاً من الخمرة أدواته لهذا المديح:¹¹

يا كثير النوح في الدمن لا عليها بل على السكن
سنة العشاق واحدة فإذا أحببت فاستكن
ظنّ بي من قد كلفتُ به فهو يجفوني على الظن
تضحك الدنيا إلى ملك قام بالأحكام والسُنن
يا أمين الله عِش أبداً فإذا أفينتنا فكن
كيف تسخوالنفس عنك، وقد قمت بالغالي من الثمن

¹¹ يوسف هادى يور. خمرات أبو نواس دراسة في المضمون. ديوان العرب: منبر حر للثقافة والفكر والأدب.

-الخمرة النفسية-

قال يوسف هاد يور: عاش أبونواس وحيدا في عصره وما كان أحد يدرك همومه التي قد أملت به، فاتخذ من الخمرة وسيلة لتبديد الأحزان التي تاكل روحه؛ كان وحيدا في ذلك المجتمع الغارق في النفاق والرياء. وكان صعبا عليه أن يرى بأن الآمال الإنسانية تمحوشيا فشيا في ظل دولة تدعي بأنها تحافظ على الدين والإنسانية، في حالة كانت في الحقيقة عدو الإسلام والإنسانية. فما كان له أن يداوى آلامه إلا باللجوء إلى نفسه وإلى خلواته¹². ولنستمع إليه وهو يردُّ على من عاب عليه معاقرة الخمرة، زاعما أنه خالى القلب من الهموم والأحزان، وأن الخمرة مجرد وسيلة إلى التبذل والعريضة، يقول:

إذا شاقك ناقوسٌ وشجُو الناي والعودُ
وغوديتَ بريقِ الخمرِ ر مجتته العناقيدُ
تطرَّبتَ إلى الإلفِ فقالوا أنت عريدُ
وهل عريدَ مكروبٌ قريخُ القلبِ معمودُ

-الخمرة الأخلاقية والعرفانية-

لم تكن الخمرة عند أبي نواس وسيلة من وسائل التعبير عن أبعاد موقفه من الفن والحياة والقيم الاجتماعية والسياسية، ووسيلة للتعبير عن معاناته الوجدانية فحسب، بل إنَّه ابتكر نوعا آخر من الخمريات في أواخر حياته وهو بلوغ شعره الخمري وهي الثمرة الناضجة من شجرة خمرياته¹³.

هذه الخمرة كلها الضوء والفرح والنشوء والمعاد والتناهي والتجلي وكأنها روح متمردة، ثائرة، قادرة على الخلق. هذا النوع من خمرياته يجعل من أبي نواس واحدا من هؤلاء السالكين

¹² يوسف هادى يور، خمرات أبو نواس دراسة في المضمون، ديوان العرب، منبر حر للثقافة والفكر والأدب.

.2012

¹³ يوسف هادى يور. خمرات أبو نواس دراسة في المضمون. ديوان العرب: منبر حر للثقافة والفكر والأدب.

.2012

دروب العارفين، المهمومين بأسرار الكون والحياة، وفي كل مرة أعود إليها أسمع نبضا يتوق إلى معانقة المطلق والإمساك بسر الوجود وأرى موقفه الأخلاقي من خلالها. فالنظر إلى هذه الأبيات:

أهلاً بمن يحميه من أنجاس	نفس المدامة أطيّب الأنفاس
فاكفّف لسانك عن عيوب الناس	وإذا خلوتَ بشرها في مجلس
فاجعل حديثك كله في الكأس	في الكأس مشغلة وفي لذاتها
وعلى اللبيب تحيّر الجلاس	صفواتعاشر في مجانبه الأذى

أ) مدائح أبي نواس

فتبدو فيها الصناعة بوضوح قليلة القيمة.

إذا قلنا كأنهما الأمير	تتبه الشمس والقمر المنير
فقد أخطاهما شبه كثير	فإن يك أشبهها منه قليلاً
على وضح الطريقة لا يحور	ونور محمد أبداً تمام

ب) رثاء أبي نواس

فنجد فيها عاطفة عميقة وحرنا مؤثراً يجعلنا نفتقر بعض ما فيها من نقائص كالتكفل في اللغة والمبالغة المعهودة في الشرق.

وَ لَا أَقْوِي عَلَي النَّارِ الْجَحِيمِ	إلهي لستُ لِفِرْدَوْسِ أَهْلًا
فَأَنَّكَ عَافِرُ الذَّنْبِ الْعَظِيمِ	فَهَبْ لِي تَوْبَةً وَ اغْفِرْ ذُنُوبِي
وَ تَبَّتْ عَلَي النَّهْجِ الْقَوْمِ	وَ عَامَلْتَنِي مُعَامَلَةَ الْكَرِيمِ

ج) غزليات أبي نواس

أما في أشعاره الغزلية ففيها من العاطفة والشاعرية الصادقة بقدر ما فيها من الإباحية و
التبذل.

أموت ولا تدري وأنت قتلتني ولو كنت تدري كنت، لا شك، ترحم
أهابك أن أشكو إليك صبايتي فلا أنا أبعدها ولا أنت تعلم
لساني و قلبي يكتمان هواكم ولكن دمعي بالهوى يتكلم
وإن لم ييح دمعي بمكنون حبكم تكلم جسمي بالنحول يترجم

هـ - الخاتمة

كان امرؤ القيس وأبو نواس شاعرين مشهورين لدى العرب. هما رائدان في الشعر
العرب في ابناء قرهما. في نهاية هذه المقالة أود أن أخص الفرق بين امرئ القيس وأبي نواس في
الشعر مما يلي:

- 1 - كان امرؤ القيس وأبو نواس مختلفا في الموقع، فنظم امرؤ القيس نسبة إلى طبيعة العرب
وميوهم بينما أن أبو نواس كتب القصيدة منتما إلى الخمریات والمدائح نحو الخليفة. كان
الشعراء العربيون القديمون في عصر امرئ القيس ركزوا في قصيدتهم الأطلال حتى جاء
أبو نواس وعبر عن رفضه نظم قصيدة تبدأ بوصف الأطلال.
- 2 - تتركب قصيدة امرئ القيس على نظام علم العروض بمعين الأوزان والقافية ولها على نمط
بحر الطويل. وجاء أبو نواس يجدد هذا النمط ونظم قصيدته مخالفا بما فعل به الشعراء
الأولون.
- 3 - نلاحظ من البحث السابق أن أهم ما يرد في موضوعات شعر امرئ القيس هو صفته
عن الأطلال و الغزل الصريح ووصف محاسن المرأة ووصف الليل المظلم والطرود و
الطبيعة. وأبو نواس كان أكثر أن يتكلم بالخمریات والمدائح والفخر والثناء.

المراجع

- ابن رشيق، العمادة، مصر: مطبع السعادة، 1955، الطبعة الثانية
- عادل الأسطة، محمود درويش والمتنبى وأمرؤ القيس وأبو تمام، مجلة الشعراء وجريدة الأيام ، 2000-2003.
- طه حسين، حديث الأربعاء، القاهرة: دار المعارف، 1976، الطبعة الثانية عشرة
- ديوان أبو نواس. بيروت: دار الصادر، دون سنة.
- الزمخشري، القسطاس في علم العروض ، بيروت: مكتبة المعارف ، 1989، الطبعة الثانية، المحقق فخر الجين فباوة
- عباس محمود العقاد، المجموعات الكاملة، لبنان: دار الكتاب اللبناني، دون سنة.
- مخايل نعيمة، المجموعة الكاملة، بيروت: دار العلم للملايين، 1971.
- عبد الرحمان المصطاوى، ديوان امرئ القيس، بيروت: دار المعرفة، 2004، . الطبعة الثانية
- يوسف هادى يور، خمرات أبو نواس دراسة في المضمون، ديوان العرب: منبر حر للثقافة والفكر والأدب، 2012.

Frangieh, Bassam K. *Anthology of Arabic Literature, Culture, and Thought from Pre-Islamic Times to the Present*, Yale University Press, 2004